اسرائيل » ويستدل من التوراة على ان اليهود كانوا يجرون على هذه السنة قبل ان أُنزلت الشريعة عليهم . وتخالف عادة اليهود عن غيرها بان هذا الزواج لم يفرض الاَّ في حالة موت الزوج الاول بلا عقب . وكانت هذه سنة الهنود عند ما جمعوا قوانين منو ولا تزال اليوم شائعة بين هنود شتواب في كولومبيا البريطانية . وكان اليهود يعتبرون الولد الذي تلدهُ المرأة من اخي زوجها المتوفى وارثًا للمتوفَّى كأنهُ ابنهُ اما شريعة منو فتقسم التركة بين الولد وابيهِ الحقيقي

ذكرنا سابقًا انهُ جرت العادة في البلدان التي انتشر فيها تعدُّد الازواج انهُ عند وفاة الاخ الاكبر يخلفهُ اكبر اخوتهِ في رئاسة العائلة وفي امواله وامرأتهِ ومن رأي الكولونل ألس الذي نقلنا عنهُ اكثر هذه المقالة ان تزوُّج الرجل بامرأة اخيهِ ومشاركة اولاد اخيهِ في ميراث ابيهم من آثار كثرة الازواج . وسواء صح ذلك او لم يصح فالامر مثبت ان تزوج المرأة بغير رجل واحد كان شائعًا في بلدان كثيرة ولم تزل آثارهُ الى يومنا هذا وكان سببهُ قلة عدد النساء بالنسبة الى عدد الرجال

الانثروبولوجيا او علم الانسان

ملخصة من خطبة الرئاسة للاستاذ مكس ملر رئيس قسم الانثروبولوجيا في المجمع البريطاني

منذ اربع واربعين سنة حضرتُ اجتماع هذا المجمع اوَّل مرة وخطب فيهِ حينئذٍ الشهير بنصن[1] خطبة موضوعها ما عُلِم من البحث في الآثار المصرية عن اصل الشعوب الاسيوية والافريقية وتقسيم اللغات . وقد تضمَّنت تلك الخطبة فوائد كثيرة لا يستدلُّ عليها من هذا الموضوع . بل فيها فقرات تُعَدُّ من قبيل الانباء بالغيب وهي دليل على ان النبوءة ممكنة في هيكل العلم

وقد تقدَّمت المعارف كثيرًا من ايام بنصن الى الآن حتَّى لقد يُظَن انهُ صار من الاقدمين ولكننا اذا قرأنا ما كتبهُ لا نراهُ قديمًا لانهُ تكلَّم عن امور لم تزل في ميدان البحث . ولو بُعِثَ اليوم وتلا الخطبة التي تلاها حينئذٍ لسُرَّ السامعون بتلاوتها كما سُرُّوا حينئذٍ ولعارضها بعضهم كما عارضوها حينئذٍ واليكم شيئًا مما أشير اليهِ

لا يخفى ان دارون نشر كتابهُ المعنون باصل الانواع سنة ١٨٥٩ وكتابهُ الآخر المعنون

(١) هو البارون بنصن من اشهر علماء المانيا واكبر سامتها ولد سنة ١٧٩١

باصل الانسان سنة ١٨٧١ ولكنّ بنصن بحث في خطبتهِ التي تلاها سنة ١٨٤٧ عمّا اذا كان الانسان متولّداً من حيوان غير معروف وتتبّع تاريخ هذه المسألة الى فردرك الكبير[٣] الذي انكر امكان تولد العاقل من غير العاقل . اما بنصن فجعل اللغة الحاجز الحصين والفاصل التام بين الانسان والحيوان الاعجم . واجاب على الذين يقولون اعطِنا عدداً كافياً من السنين فتتحوّل اصوات العجماوات الى نطق صحيح ان الذين يقولون هذا القول لم يُرونا حتّى الآن إمكان الدرجة الاولى من درجات هذا النطق فيطلبون منا ملايين من السنين كأنّ ملايين السنين توجد العلة اللازمة للدرجة الاولى وقد خفي عليهم ان العدد لا يُوجِد المعدوم وكيف يمكن العقل ان يُوجَد من لا عقل وكيف يتولّد النطق الذي يُعبّر بهِ عن الافكار من اصوات متقطعة دالّة على اللذة والالم سواءٌ كان ذلك في سنة او في مليون سنة

ولا يخفى عليكم ان كثيرين حاولوا تقريب البُعد الذي تثبتهُ اللغة بين الانسان والحيوان الاعجم ولاسيّما بعد ان انتشرت كتب دارون وحسبوا اللغة شيئاً طفيفاً في ارتقاء الحيوان والانسان واحجم البعض عن الوقوف امام دارون في ميدان المناظرة اما الآن فالثقات عادوا الى رأي بنصن على ما اظن وهو انهُ ما من حيوان ارتقى من نفسهِ فتولّد النطق بارتقائهِ من اصوات العجماوات البسيطة . والعلم الحقيقي مبني على الحقائق ومن الحقائق انهُ ليس من حيوان اوجد ما نسميهِ لغةً ولذلك فنحن مصيبون اذا تابعنا بنصن وخالفنا دارون وقلنا انهُ يوجد فصل تام بين الانسان وبقية انواع الحيوان وهذا الفصل هو اللغة او النطق . اي يبقى قول الاصوليين «الانسان حيوان ناطق» تعريفاً للانسان

ومن المسائل الكبيرة التي يهتمُّ بها زعماء الباحثين في علم الانسان مسألة لغات المتوحشين وعوائدهم وشرائعهم وعقائدهم وما يمكن ان يُستفاد من البحث فيها . ومعلوم ان البعض يحسبون المتوحشين مثالاً للبشر الذين لم يزالوا في حالة الفطرة والبعض يحسبونهم مثالاً لما يمكن ان يبلغ اليهِ حال البشر بتهذيبهم . ويظهر لدى امعان النظر ان بعض هؤلاء المتوحشين كان ارتقاؤهم بطيئاً جداً فبقي عندهم اثر للعوائد والشعائر القديمة التي يُظن انها دليل على حال الفطرة . والبعض الآخر كانوا في حالة ارقى من حالتهم الحاضرة وقد تقهقروا منها ولم يزالوا آخذين في التقهقر . واذا سلّمنا ان البشر من نوع واحد لزمنا القول بان اسلاف اشد الناس توحشاً كاهالي استراليا لم يولدوا بعد اسلاف اليونانيين بيوم واحد ولا كانت درجات ارتقائهم اقل من درجات ارتقاء اليونانيين لان بني البشر كلهم

(٣) هو فردرك الثاني ملك بروسيا الذي فاق ملوك اوربا عظمةً وعلماً

من عهد واحد . اما نحن فلا نعرف هؤلاء الشعوب الاَّ بعد ان مرَّت عليهم اطوار كثيرة من الارتقاء والانحطاط ولذلك فلا يصح الحكم بان متوحشي هذا الزمان هم اقرب الى الفطرة . ولا يخفى ان بعض المتوحشين قد اعتادوا اكل لحم البشر فهل يُستدلُّ من ذلك على ان البشر كانوا كلهم في اول امرهم يأكل بعضهم لحم بعض . وهنا ترى صدق كلام بنصن فقد قال ان المتوحشين ليسوا مثالاً لما كان عليهِ الانسان الاول وهو في حال الفطرة لان في لغاتهم ما يدلُّ على انها من آثار لغات شريفة وسيعة

واني في اعتمادي على رأي بنصن اخالف بعض مشاهير الكتَّاب كالسرجون لبُك وغيرهِ وقد يُظن ان هربرت سبنسر يحسب المتوحشين مثالاً للحالة الفطرية فان كان هذا رأيهُ قبلاً فهو ليس رأيهُ الآن ولا شيء يعجبني في هربرت سبنسر مثل محبتهِ للحق والرجوع عن آرائهِ علانية اذا تبيَّن لهُ فسادها فقد كتب منذ مدة يقول انهُ كان يسهل علينا ان نعرف الامور الفطرية لو كان عندنا علمٌ عن الانسان الفطري لكن لدينا ادلة كثيرة على ان ادنى قبائل الناس وابسطهم معيشة لا يمثِّلون الانسان في حالتهِ الاولى بل المرجح ان اكثرهم ان لم نقل كلهم كان لهم اسلاف ارقى منهم

وقد اصاب بنصن في المسائل الجزئية كما اصاب في المسائل الكلية ولو خالفهُ كثيرون من اهل عصرهِ والذين جاؤا بعدهم فقد كان العلماء مختلفين في اللغات الاميركية بين ان تكون مشتقة من اللغة الايرانية او انها فرع قائم بنفسهِ كالسنسكريتية والفارسية واليونانية فحسبها فرعًا قائمًا بنفسهِ من فروع اللغات الآرية ولم يثبت ذلك حتَّى اثبتهُ الاستاذ هبشمن سنة ١٨٨٣ وكان العلماء مختلفين في اللغة الافغانية بين ان تكون مشتقة من الفرع الهندي او الايراني فقال بنصن انها من الفرع الايراني وقد اثبت ذلك الآن الاستاذ درستر فجاء قول بنصن من قبيل النبوءة العلمية

هذا ولا يُنكر ان علم الانسان (الانثروبولوجيا) قد تقدَّم كثيرًا من ايام بنصن الى الان وصار علمًا حقيقيًّا مثل بقية العلوم ومُحِّص احسن تمحيص فنزعت منهُ بعض الآراء والمذاهب الفاسدة بل بعض المبادىء الاساسية من ذلك حسبان البحث اللغوي دعامة في علم الانسان فقد ذهب بنصن وغيرهُ الى انهُ يمكن قسمة البشر بحسب لغاتهم وقد اعترضتُ على هذا القول حينئذٍ ونشرتُ اعتراضي على بنصن سنة ١٨٥٣ وقلتُ ان التقسيم اللغوي والتقسيم الشعبي لا يتفقان الاَّ قبل عصر التاريخ او في اول عصر التاريخ . ولكن لما اخذت الشعوب تضرب في البلدان وكثُرت غزواتها وحروبها وغلباتها ومستعمراتها لم تبقَ لغاتها

جارية مع شعوبها فاذا رأينا الشعب القوقازي يتكلم الآن باليونانية (وهي من اللغات الآرية) والتركية (وهي من اللغات الطورانية) والعبرانية (وهي من اللغات السامية) فليس ذلك لانه من شعوب مختلفة . فعلى علماء اللغات ان يبحثوا فيها غير ملتفتين الى اصل الشعوب المتكلمين بها

ولكن لم يسمع احد قولي في اول الامر بل ظن البعض انني ارى ما يناقضه لانني كنت اتكلم احيانًا عن الآريين وانا اعني المتكلمين باللغات الآرية . فيجب ان يُجعَل فصل تام بين اللغات والشعوب . فاذا قلنا الآريين عنينا المتكلمين باللغات الآرية لا المنتمين من الاصل الآري . اما ميزات الشعوب التي يعتمد عليها الباحثون الآن فهي قياس الجماجم وشكل الشعر والاسنان ولون الجلد . ولكنّ نتائج ذلك غير متفقة . ومن اشهر هذه الميزات لون الجلد وبه ينقسم الناس الى سود وسمر وصفر وحمر وبيض واقسام اخرى بينها وقد اعترض كثيرون على اعتبار لون الجلد صفة مميزة ولكنهم سيجدونه اقوى الميزات

وهناك ميز آخر نُظر اليه حديثًا وهو لون العين بين ان تكون سوداء او شهلاء او رمادية او زرقاء . والميز الذي يُعتمَد عليه كثيرًا هو شكل الجمجمة بناء على انها الوعاء الذي يتضمّن الدماغ ويشف عن نفس الانسان ولكن اذا تفحصنا جماجم كثيرة وقسمناها الى اشكالها الثلاثة وهي المصفّح والمفرطح والمستدير ثم نظرنا الى الشعوب المأخوذة منها لا نرى انطباقًا بين تقسيمها وتقسيم الشعوب بل قد نجد جمجمتين مختلفتين وصاحباها اخوان من ام واحدة . واذا اعتبرنا امتزاج الشعوب من قديم الزمان ولاسيما بواسطة الاسر واخذ السراري لم نعجب من هذا الاختلاط

وجميع الميزات المتقدمة وما يجري مجراها مثل زاوية الوجه وشكل العين والانف مفيدة في بابها ولكنها غير قاطعة في حكمها . واذا صدقت فيكون قبل زمان التاريخ

فاذا فرضنا ان المصفحي الرؤوس كانوا يتكلمون الآرية والمستديري الرؤوس يتكلمون السامية والمفرطحي الرؤوس الطورانية وذلك كله قبل عصر التاريخ وبحثنا في هذه اللغات وجدنا في كلٍّ منها كلمات دخيلة وهذا يدل على اتصال قديم بينها مثال ذلك ان اقدم كتابة بابلية تاريخها ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح وفيها كلمة سندو للثياب المصنوعة من الياف النبات وهي مأخوذة من كلمة سند بالسكريتية لقسم من بلاد الهند (ولعلّ منها كلمة سَنَد في العربية لنوع من البرود) وهي كلمة سِنْدُن التي استعملها هوميروس اليوناني للثياب الدقيقة . وفي اللغة المصرية كلمات كثيرة مثل الكلمات السامية حتى يتعذّر علينا الحكم في ما اذا

كانت دخيلة من اللغة السامية او مشتقة معها من اصل واحد . ويقال ان في الآثار المصرية التي من القرن الرابع عشر قبل المسيح كلمات كثيرة آرية الاصل. وان اللغات الطورانية مشحونة بالكلمات الآرية ونعلل ذلك ان اسلاف الشعوب المتكلمين باللغات الآرية والسامية والطورانية كانوا ساكنين بعضهم بقرب بعض وبعد عن الظن انهم لم يتزوجوا بعضهم من بعض في اوقات السلم اولم يقتل بعضهم البعض الاخر ويغنموا نساءهم وقت الحرب ومن ثمّ امتزجت الشعوب بعضها ببعض وصار اولاد النساء المصفحات الراس يتكلمون لغة آبائهم المفرطحي الرأس وهلمّ جرًّا فلا يمكن احدًا ان يمسك الآن حجمة بيده ويقول ان صاحبها كان يتكلم اللغة السامية او الآرية بناء على شكل الجمجمة لما تقدّم من الاسباب

اما من جهة وطن الآريين الاصلي فعلماء اللغات لا يعلمون الاّ ان وطن الاريين اي المتكلمين باللغة الآرية كان في اسيا وكل ما قيل غير ذلك ليس من العلم في شيء . اما لونهم وشعرهم وعيونهم فعلماء اللغات لا يعلمون شيئًا من امرها واذا خرجنا من دائرة العلم الضيقة وتهنا في فيافي الحدس والتخمين فيمكننا ان نقول مع بعض ان الآريين كانوا مصفحي الرؤوس زرق العيون شقر الشعور او مع بعض انهم كانوا مفرطحي الرؤوس سُهل العيون سود الشعور ولا فرق بين القولين لانهما خاليان من المعنى على حدٍ سوى

وقد اثبت لي الاختبار ما قلتهُ منذ اربعين سنة وهو انهُ يجب ان يُفرّق بين الفيلولوجيا (علم اللغات) والنسيولوجيا (علم وظائف الاعضاء) ولكن يجب ان لا ينفصل بينهما فصلاً تامًّا لان علم الفيلولوجيا لازم اشد اللزوم لعلم الانثروبولوجيا ولا يمكن الانثروبولوجي ان يهتدي في بحثهِ الى نتيجة الصواب ما لم يكن عالمًا بلغة القوم الذين يبحث عنهم او ما لم يعتمد على كلام مَن يعرف لغتهم حق المعرفة . وذلك مسلّم بهِ اذا كان الكلام عن الشعوب التي علومها مكتوبة في لغتها كاليونان والرومان واليهود والعرب ومع ذلك فعلماء كل لغة من لغات هؤلاء الشعوب يختلفون في امور كثيرة وقد تكثر بينهم المجادلات والمشاحنات في معنى كلمة من الكلمات ولو قضوا على درس اللغة حياتهم كلها وكثيرًا ما يختلفون في اخص مزايا ذلك الشعب مثال ذلك العبرانيون فان الباحثين في تاريخهم مختلفون في هل كانوا موحّدين او كانوا يعتقدون بآلهة كثيرة وان يهوه معبودهم الخاص فوق كل الآلهة ولا يخفى مقدار الاختلاف بين العلماء في اخلاق اليونان والرومان ومعنى عوائدهم وشعائرهم الدينية وحقيقة معبوداتهم مع ما عندهم من الكتب ومع ذلك فتدبير مسائح ببلاد شعب من

الشعوب ثم يكتب كتابًا في اخلاق ذلك الشعب وهو يجهل لغته . ويعتمد الانثرو بولوجيون على كتابة هذا في وصف اخلاق ذلك الشعب وعوائده وشرائعه وديانته . ولقد اجاد المستر فيسون حيث قال اذا اقام الاوربي في بلاد غريبة سنتين او ثلاث سنين حسب انه صار عارفًا بكل شؤون سكانها واخلاقهم واذا اقام بينهم عشر سنين علم انه لا يعلم شيئًا وانه قد ابتدأ يعرف من امرهم بعض الشيء . ولكن ما اقلّ الكتب التي الّفها اناس اقاموا بين الذين وصفوهم عشرين سنة او اكثر وتعلموا لغتهم جيدًا . ولا عبرة بما يقوله البعض من ان السائح الذي له عينان نربان واذنان تسمعان يستطيع ان يبني حكمه على ما يراهُ ويسمعهُ . فهب ان سائحًا دخل محلةً ورأى الوفًا من الرجال والنساء يرقصون حول تمثال ثور صغير وهم عراة حفاة وبعد قليل رآهم يقتتلون فسقط منهم ثلاثة آلاف مضرّجين بالدماء . افما كان بحسبهم اشد توحشًا من برابرة دهومي ولكن هؤلاء الناس هم شعب الله المختار صعدوا مصر وعبدوهُ بامر هرون ثم قُتلوا بامر موسى وتفصيل ذلك في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج فلو كان السائح قادرًا على التكلم مع موسى وهرون واخبراهُ بواقعة الحال لما جار في حكمهِ ولا ارتكب الشطط واذا لم يكن قادرًا على التكلم معهما فلا يمكنهُ ان يعرف حقيقة ما يرى ولو كان فيلسوفًا ولا ان ينبّئ بالخبر الصحيح مهما كان صادقًا

فعسى ان يتفق علماء الانثرو بولوجيا على عدم الاقتباس من احد او الاعتماد على احد الاّ اذا كان يعلم لغة القوم الذين يتكلم عنهم علمًا يمكّنهُ من مذاكرتهم ومباحثهم في المواضيع التي يكتب فيها . بل لا يليق باحد من الانثرو بولوجيين انفسهم ان يكتب عن اخلاق شعب وديانتهم ما لم يكن يعرف لغتهم جيدًا ودليلي على ذلك كثرة تناقض الكتّاب في ما رووهُ عن بعض شعوب الهند ونحوهم قبلما علمت لغاتهم ثم لما وقفنا على حقيقة حالهم وجدناها مناقضة على خط مستقيم لما روي عنهم قبلاً . (وذكر الخطيب خلاصة المناقضات التي وردت في كتب الذين وصفوا اهالي تسمانيا وقد ذكرناها في المجلد الماضي من المقتطف وختم خطبتهُ بفقرة من خطبة الشهير بنصن وهي)

اذا كان الانسان ارقى المخلوقات كلها فالبحث عن اصلهِ وارتقائهِ جدير من الجهة الواحدة بأن يبقى متصلاً بالعلوم الطبيعية ولاسيما بعلم النسبولوجيا . واذا كان الانسان ارقى المخلوقات وغايتها ومفتاح الطبيعية وسرها فعلم الانسان ارقى العلوم التي انشئ هذا المجمع لترقيتها فيجب ان لا يكون من ملحقات غيره بل ان يكون علمًا قائمًا بنفسهِ